الـدرس الرابـع: "الرسـالة العـذراء فـي مـوازين البلاغـة وأدوات الكتابـة" لأبـي اليُسْـر إبـراهيم بـن محمـد الشـيباني الـذي كتبهـا إلـى إبـراهيم بـن محمـد بـن المـدبّر، فنُسِـبتْ بالخطـأ إلـى ابـن المـدبّر؛ فـي مجلـة "المقتـبس" علـى يـد الأسـتاذ محمـد كـرد علـي وكـذلك صـنع الـدكتور زكـي مبـارك. أمّـا الـذي حقّقهـا وقـدّمَ لهـا فهـو الـدكتور محمـد المختـار العبيـدي، ونسـب الرسـالة إلـى إبراهيم بن محمد الشيباني المتوفّى سنة 298هـ .

تحتـوي الرسـالة علـى أحـد عشـر مقطعـاً لافتـاً، فـي مسـألة اللفـظ والمعنـى، وكيفيـة اكتسـاب المهـارات اللغويـة ومفهـوم القـديم والجديـد، ومراعـاة أوقـات الكتابـة، ومقتضـيات الحـال والمقـام، والاخـتلاف إلـى العلمـاء، ومُجالَسـتِهِمْ والاغتراف من حكمة المتقدّمين واجتهادات المتأخّرين...

وفي ما يلي؛ عرض لبعض محتويات الرسالة، يقول أبو اليُسْر:

1- اعْلَـمْ -أيَّـدكَ اللَّهُ- أنَّ أدواتِ ديـوانِ جميـعِ المحاسـنِ، وآلاتِ المكـارمِ؛ طاعـةٌ منقـادةٌ لهـذه الصِّـناعةِ الَّتـي خَطَبْتَهـا، وتاليـةٌ تابِعـةٌ لهـا، وغيـرُ خارجـةٍ إلَـى جَحْـدِ أحكامِهـا، ولا دافِعـةٌ لِمَـا يلزمُهـا الإقـرارُ بـه لهـا، إضـرارًا منهـا إليهـا، وعجـزًا عنهـا. فـإن تَقَاضَـتْكَ نَفْسُـكَ عِلْمَهـا، ونازَعَتْـكَ هِمَّتُـكَ إلَـى طَلَبِهـا؛ فاتَّخِـذِ البُرهـانَ دلـيلاً شـاهِدًا، والحـقَّ إمامًـا قائـدًا؛ يُقـرِّبْ مسـافةَ ارتيـادِكَ، ويُسـهِّلْ عليـكَ سُـبلَ مَطالِبِهـا، واسـتوهبِ اللهَ توفيقًـا تسـتَنجِحُ بـه مَطَالِبَـكَ، واسْـتَمْنِحْهُ رشـدًا يُقبـل إليـكَ بوَجْـهِ مـذاهبكَ. فاقصِـدْ فـي ارتيـادكَ، وتأمَّـلِ الصَّـوابَ فـي قولـكَ وفعلـكَ، ولا تسـكُنْ إلـى جُحـودِ قَصْـدِ السَّـابقِ باللَّجـاجِ، ولا تخـرجْ إلـى إهمـالِ حـقِّ المُصـيبِ بالمعانَـدةِ والإنكـارِ، ولا تسـتخِفَّ بالحكمـةِ، ولا تُصـغرها حيـثُ وجـدتَّها؛ فترحـلَ نـافرةً عـن مواطنِهـا مـن قلبـكَ، وتظعـنَ شـاردةً عـن مكانِهـا مـن بالـكَ، وتتعفَّـى بعـد العمـارةِ مـن قلبـكَ آثارُهـا، وتـنطمسَ بعـد الوضوحِ أعلامُها.

2- واعلمْ أنَّ الاكتِسابَ بالتَّعلُّمِ، والتَّكلُّفِ، وطولِ الاختلافِ إلى العُلَماءِ، ومُدارَسة كُتُبِ الحُكَماءِ. فإنْ أردتَّ خَوْضَ بِحارِ البلاغةِ، وطلَبْتَ أدواتِ الفصاحةِ؛ فتصفَّحْ مِن رسائل المتقدِّمين ما تعتمدُ عليه، ومن رسائل المتأخِّرين ما ترجعُ إليه؛ في تلقيحِ ذهنِكَ، واستنجاحِ بلاغتك، ومن نوادرِ كلامِ النَّاس ما تستعينُ به، ومن الأشعارِ، والأخبارِ، والسِّيرِ، والأسمارِ؛ ما يتَّسعُ به منطقُكَ، ويعذُبُ به لِسانُكَ، ويطولُ به قَلَمُكَ.

3- وتحفَّظْ في صُدورِ كُتُبِكَ وفُصولِها، وافتتاحِها وخاتمتِها، وضَعْ كُلَّ مَعْنًى في موضِعٍ يليقُ به، وتخيَّر لِكُلِّ لَفْظةٍ معنًى يُشاكِلُها، ولْيَكُن ما تختِمُ به فصولَك في موضعِ ذِكْرِ الشَّكْوَى بمثل: «واللهُ المستعان، وحسبُنا الله ونِعْمَ الوكيل»، وفي موضعِ ذِكْرِ البَلْوَى: «نسألُ اللهَ دَفْعَ المحذورِ، ونسأل اللهَ صَرْفَ السُّوءِ»، وفي موضعِ ذِكْرِ المُصيبةِ بمثل: «إنَّا للهِ، وإنَّا إليه راجعون»، وفي موضعِ ذِكْرِ النِّعَمِ بمثل: «والحمدُ للهِ خالصًا، والشُّكْرُ للهِ واجبًا»؛ فإنَّها مواضِعُ ينبغي للكاتبِ تفقُّدُها، فإنَّما يكونُ كاتِبًا إذا وَضَعَ كُلَّ مَعْنًى في موضِعِهِ، وعلَّقَ كُلَّ لفظةٍ علَى طِبْقِها مِنَ المعنَى، فلا يجعل أوَّلَ ما ينبغي له أن يُكتَبَ في آخرِ كتابِه في أوَّلِهِ، ولا أوَّلَهُ في آخِرِه؛ فإنِّي سمعتُ جعفر بن محمَّد الكاتب يقول: «لا ينبغي للكاتبِ أن يكونَ كاتِبًا حتَّى لا يستطيع أحدٌ أن يُؤخِّرَ أوَّلَ كِتابِهِ، ولا يُقدِّم آخِرَهُ».

4- فتَخيَّرْ مِنَ الألفاظِ أرجحَها وَزْنًا، وأجزلَها معنًى، وأشرفَها جَوْهرًا، وأكرمَها حَسَبًا، وأليقَها في مكانِها، وأشكَلَها في مَوْضِعها. ولْيَكُن في صَدْرِ كتابِكَ دليلٌ واضحٌ على مُرادِكَ، وافتتاحِ كلامِكَ برهانٌ شاهدٌ على مقصدِكَ، حيثُما جرَيْتَ فيه مِن فُنونِ العِلْمِ، ونَزَعْتَ نَحْوَهُ مِن مذاهب الخُطَبِ والبلاغاتِ؛ فإنَّ ذلك أجزلُ لِمَعْناك، وأحسنُ لاتِّساقِ كلامِكَ. ولا تُطِيلَنَّ صَدْرَ كلامِكَ إطالةً تُخرِجُه عن حَدِّهِ، ولا تقصِّر به عن حقِّه.

5- وإن حَاوَلْتَ صَنْعَةَ رِسالةٍ، أو إنشاءَ كتابٍ؛ فَزِنِ اللَّفظةَ قَبْلَ أن تُخْرِجَهَا بميزانِ التَّصريفِ إذا عَرَضَتْ، وعايِرِ الكَلِمةَ بمِعْيارِهِ إذا سَنَحَتْ، فرُبَّما مَرَّ

بِكَ مَوْضِعٌ يكونُ مخرجُ الكلامِ إذا كَتَبْتَ: «أنا فاعِلٌ» أحسنَ مِنْ أَن تَكْتُبَ: «أنا أفعلُ»، وموضعٌ آخَرُ يكونُ فيه «اسْتَفْعَلْتُ» أحلى من «فَعَلْتُ.«

فأدِرِ الألفاظَ علَى أعكانِها، واعرِضْها علَى مَعانِيها، وقَلِّبْها علَى جميعِ وجوهِها، فأيّ لَفْظةٍ رأيتَها في المكانِ الَّذي ندَبْتَها إليهِ؛ فانزِعْها إلى المكانِ الَّذي أوردتَّها عليه، وأوقِعْها فيه، ولا تجعلِ اللَّفظةَ قَلِقةً في مَوْضِعِها، نافرةً عَن مكانِها؛ فإنَّكَ متَى فَعَلْتَ؛ هجَّنْتَ المَوْضِعَ الَّذي حاوَلْتَ تَحسينَهُ، وأفسدتَّ المكانَ الَّذي أردتَّ إصلاحَهُ؛ فإنَّ وَضْعَ الألفاظِ في غيرِ أماكنِها، وقصدَكَ بِها إلى غيرِ نِصابِها؛ إنَّما هُوَ كتَرْقيعِ الثَّوْبِ الَّذي إذا لَمْ تَتَشابَهْ رِقاعُهُ، ولَمْ تَتقارَبْ أجْزاؤُهُ؛ خَرَجَ مِنْ حَدِّ الجِدَّةِ، وتغيَّر حُسْنُهُ؛ كما قالَ الشَّاعِرُ:

إنَّ الجَديدَ إذا ما زِيدَ في خَلَقٍ يُبِينُ للنَّاسِ أنَّ الثَّوبَ مَرْقُوعُ

6- وارتَصِدْ لكتابِكَ فراغَ قلبِكَ، وساعةَ نشاطِكَ، فتجدَ ما يَمتنع عليكَ بالكدِّ والتكلُّف؛ لأنَّ سماحةَ النَّفس بمكنونِها، وجودَ الأذهانِ بمخزونِها؛ إنَّما هو مع الشهوةِ المفرطةِ في الشِّعر، والمحبَّةِ الغالبة فيه، أو الغَضَبِ الباعثِ منه ذلك.

قيلَ لبعضهم: لِمَ لا تقول الشِّعْرَ؟ قال: كيفَ أقوله، وأنا لا أغضبُ، ولا أطربُ! وهذا كُلُّه إن جَرَيْتَ مِنَ البلاغةِ على عِرْقٍ، وظهَرْتَ مِنها على حَظٍّ. فأمَّا إن كانَتْ غيرَ مُناسِبةٍ لطبعِكَ، ولا واقعة شهوتُك عليها؛ فلا تُنضِ مَطيَّتَكَ في التماسِها، ولا تُتْعِب بدنَك في ابتغائِها، واصرفْ عِنانَك عنها، ولا تطمَعْ فيها باستعارتِكَ ألفاظَ النَّاسِ وكلامَهم؛ فإنَّ ذلك غيرُ مُثْمرٍ لك، ولا مُجْدٍ عليكَ. ومَن كانَ مرجعُه فيها إلى اغتصابِ ألفاظِ مَن تقدَّمَهُ، والاستضاءةِ بكوكبِ مَن سَبَقَهُ، وسَحْبِ ذَيْلِ حُلَّةِ غَيْرِهِ، ولَمْ يَكن معهُ أداةٌ تُوَلِّدُ لَهُ مِن بَناتِ قَلْبِهِ، ونتائجِ ذِهْنِه الكلامَ الحُرَّ، والمَعْنَى الجَزْلَ= لَمْ يَكن من الصِّناعةِ في عِيرٍ ولا نَفِيرٍ. علَى أنَّ كلامَ العُظَماءِ المطبوعين، ودَرْسَ رسائلِ المُتقدِّمين علَى كُلِّ حالٍ= مِمَّا يَفْتُقُ اللِّسانَ، ويُوسِّعُ المنطقَ، ويَشْحَذُ الطَّبع، ويستثيرُ كوامِنَه، إن كانَتْ فيه سَجيَّةٌ.

قال العتَّابيُّ: «ما رأينا -في ما تصرَّفْنا فيه مِن فُنونِ العِلْمِ، وجَرَيْنا فيه من

صُنوفِ الآدابِ- شيئًا أصعبَ مَرامًا، ولا أوعَرَ مَسْلكًا، ولا أدلَّ علَى نَقْصِ الرِّجالِ ورَجاحتِهم، وأصالةِ الرَّأي، وحُسن التَّمييز منه، واختياره= مِنَ الصِّناعة التي خطبتها، والمعنَى الذي طلبته». ولَيْس شيءٌ أصعبَ من اختيارِ الألفاظِ، وقصدك بها إلى موضعِها؛ لأنَّ اللَّفظةَ تكون أُخْتَ اللَّفظة، وقَسيمتَها في الفصاحةِ والحُسن، ولا تحسُن في مكانِ غَيْرِها. وبتمييزِ هذه المعاني، ومُناسبة طبائعِ جَهابِذتِها، ومُشاكَلة أرواحِهم= جَعَلوا الكِتابةَ نسبًا وقرابةً، وأوجَبوا علَى أهلِها حِفْظَها.

7- فَإن مُنِيتَ بِحُبِّ الكِتابةِ وصناعتِها، والبلاغةِ وتأليفِها، وجاشَ صَدْرُكَ بشِعْرٍ معقودٍ، أَوْ دَعَتْكَ نَفْسُكَ إلى تأليفِ الكلامِ المنثورِ، وتهَيَّأَ لكَ نَظْمٌ هو عندكَ مُعتَدِلٌ، وكلامٌ لديكَ مُتَّسقٌ؛ فلا تَدْعُوَنَّكَ الثِّقةُ بنفسِكَ، والعُجْبُ بتأليفِكَ؛ أن تهجمَ به علَى أهلِ الصِّناعةِ؛ فإنَّكَ تنظُرُ إلى تأليفكَ بعَيْنِ الوالدِ لوَلَدِهِ، والعاشقِ إلى عَشيقِه؛ كما قالَ حَبيبٌ:

ويُسيءُ بالإحسانِ ظَنًّا لا كَمَا هُوَ بابْنِهِ وبشِعْرِهِ مَفْتُونُ

ولكنِ اعْرِضْهُ علَى البُلغاءِ والشُّعراءِ والخُطباءِ ممزوجًا بغيرِه، فإنْ أصْغَوْا إليه، وأَذِنوا له، وشَخَصُوا بالأبصارِ، واستَعادُوه، وطلبوه منكَ، وامتزج؛ فاكشفْ من تلك الرِّسالة والخُطبةِ والشِّعر اسمَه، وانسبْهُ إلى نفسِكَ. وإن رأيتَ عنه العيونَ مُنصرِفةً، والقُلوبَ عنه ذاهبةً؛ فاستدلَّ به علَى تخلُّفكَ عن الصِّناعةِ، وتقاصُركَ عنها، واسترِبْ رأيَكَ عند رأيِ غيرِكَ مِنْ أهلِ الأدبِ والبلاغةِ.

8- ولا تُخاطِبَنَّ خاصًّا بكلامِ عامٍّ، ولا عامًّا بكلامِ خاصٍّ، فمتَى خاطَبْتَ أحدًا بغيرِ ما يُشاكِلُهُ؛ فقد أجرَيْتَ الكلامَ غير مُجْرَاه، وكشفته. وقَصْدُكَ بالكلامِ الشَّريفِ للرَّجلِ الشَّريفِ تنبيهُ لقَدْرِ كلامِكَ، ورفعٌ لدرجتِه، قال:

فلَمْ أمدَحْهُ تفخيمًا لشِعْري ولكنِّي مَدَحْتُ بِكَ المَديحا

فلا تُخْرِجنَّ كلمةً حتَّى تَزِنَها بميزانِها، فتعرفَ تمامَها ونظامَها، وموارِدَها

ومصادِرَها. وتجنَّب ما قدرتَ الألفاظَ الوحشيَّةَ، وارتفِعْ عَنِ الألفاظِ السَّخيفة، واقتضِبْ كلامًا بين الكلامَيْنِ.

9- والكاتبُ المستحقُّ اسْمَ الكتابةِ، والبليغُ المحكومُ لَهُ بالبلاغةِ؛ مَنْ إذا حاولَ صيغةَ كتابٍ؛ سالَتْ علَى قَلَمِهِ عيونُ الكلامِ مِن ينابيعِها، وظهرَتْ مِن معادنِها، ونَدَرَتْ مِن مواطنِها، عَنْ غَيرِ استكراهٍ، ولا اغتصابٍ.

حدَّثَنا صديقٌ للعتَّابيِّ؛ قال له: اعملْ لي رِسالةً، فاستمدَّه مدَّةً بعد أُخْرَى، فقال له: ما أرَى بلاغتَكَ إلاَّ شاردةً عنك، فقال له العتابيُّ: إنِّي لَمَّا تناولتُ القَلَمَ تداعَتْ علَيَّ المعاني مِن كُلِّ جِهَةٍ، فأحببتُ أنْ أترُكَ كلَّ معنًى يَرْجِعُ إلى مَوْضِعِهِ، ثُمَّ أجتني لكَ أحسنَها.

10- وكُلَّما احْلَوْلَى الكلامُ، وعَذُبَ، ورقَّ، وسَهُلَتْ مَخارِجُهُ؛ كانَ أسهلَ وُلوجًا في الأسماعِ، وأشدَّ اتِّصالاً بالقلوبِ، وأخَفَّ علَى الأهواءِ، ولا سيَّما إذا كان المعنَى البديعُ مُتَرْجَمًا بلفظٍ مُونقٍ شريفٍ، ومُعبَّرًا بكلامٍ مؤلَّفٍ رشيقٍ، لم يشِنْهُ التَّكلُّفُ بِمِيسَمِهِ، ولَمْ يُفْسِدْهُ التَّعقيدُ باستهلاكِه.

11- والمعاني وإن كانَتْ كامنةً في الصُّدورِ؛ فإنَّها مُصَوَّرةٌ فيها، ومُتَّصلةٌ بِها، وهي كاللآلئِ المُنطويةِ في أصدافِها، والنَّارِ المخبوءةِ في أحجارِها، فإنْ أَظْهَرْتَها مِن أكنانِها، وأصدافِها؛ تبيَّنَ حُسْنُها، وإن قَدَحْتَ النَّارَ مِن مكامنِها، وأحجارِها؛ انتفَعْتَ بِها، وإلاَّ بَقِيَتْ محجوبةً مستورةً. ورُبَّما يُستثارُ الكامِنُ مِنها، ويُسْتَخْرَجُ المُسْتَسِرُّ مِن جَواهِرِها؛ بقَدرِ حِذْقِ المُستنبِطِ، وصوابِ حَرَكاتِ المُستخرِج، وقَصْدِ إشارتِه، ولُطْفِ مذاهبِه. وكذلك ليس كلُّ ناطقٍ ولا كاتبٍ يوضِّح عَنِ المعنَى، ولا يصيبُ إشارتَه. وكُلَّما كانَ الكلامُ أفصحَ، والبيانُ أوضحَ؛ كانَ أدلَّ علَى حُسْنِ وَجْهِ المعنَى. وقد رأيتهم شبَّهوا المعنَى الخفيَّ بالرُّوحِ الخفيِّ، واللَّفظَ الظَّاهر بالجثمانِ الظَّاهر. وإذا لَمْ ينهَضْ بالمعنَى الشَّريفِ لَفْظٌ شريفٌ جَزْلٌ؛ لَمْ تكُنِ العبارةُ واضحةً، ولا النِّظامُ مُتَّسِقًا، وتضاءَلَ المعنَى الحَسَنُ تَحْتَ اللَّفْظِ القَبيحِ، كتضاؤُلِ الحَسْناءِ في الأطْمارِ الرَّثَّةِ.